ملامح من العمارة العربية في ولاية طرابلس الغرب (1835-1911م)

وفاء كاظم ماضي
كلية التربية–قسم التاريخ

المقدمة

تشكل العمارة العربية صورة من صور التقدم الاجتماعي والاقتصادي لأية منطقة او بقعة جغرافية، وولاية طرابلس الغرب تعد واحدة من المناطق العربية المهمة بموقعها الجغرافي في الشمال الإفريقي، شكلت واحدة من المناطق المهمة لدراسة العمارة العربية فيها، في حقبة تاريخية مهمة، هي حقبة العهد العثماني الثاني (1835–1911)، وجاءت هذه الأهمية من ناحيتين الأولى موقعها الجغرافي، كما أسلفنا سابقاً، الواقع في شمال إفريقيا بالقرب من المناطق التجارية في الجنوب الإفريقي حيث يبتعد عن مظاهر الحضارة والعمران، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت الولاية أخر منطقة عربية في الجزء الإفريقي تسيطر عليها الدولة العثمانية، التي بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر تفقد مستعمراتها وولاياتها الواحدة تلو الأخرى، فلم يبقى لها مع حلول القرن العشرين سوى ولاية طرابلس الغرب، وهذا ما شكل عاملاً مهماً في دراسة العمارة العربية في هذه المنطقة، يضاف الى ذلك كله بساطة البناء وعدم تعقيده والذي يعكس الواقع الاقتصادي المتواضع للمنطقة، وهو على النقيض من القلاع والقصور ذات التصاميم المعقدة والتي تعكس التطور الاقتصادي وارتفاع مستوى معيشة سكان المنطقة.

من الصور العمرانية التي تناولناها في هذا البحث المنازل التي اختلفت بتصاميمها وطرق بناءها من مكان الى آخر، وان كانت في اغلبها قد اتسمت بطابع البساطة في البناء والتصميم، فضلاً عن بساطة اثاثها المقتصر على المواد المنزلية الضرورية فقط، ولكن غالبية المنازل جمعتها سمة النظافة والترتيب، وهي الصفة التي ميزت منازل الولاية عن غيرها من المناطق.

اما الحمامات التي ارتبط وجودها مع النظافة والتطهر فاختلفت هي الأخرى في تصاميمها فهناك البسيطة، واخرى الكبيرة والمعقدة، وهذا ماينطبق أيضا على الفنادق التي ارتبط وجودها مع الحركة التجارية، باعتبار ان هذه المنطقة وخلال هذه الحقبة التاريخية كانت تعد من المناطق التجارية الهامة فهي حلقة وصل مابين المناطق الأوربية ومناطق جنوب إفريقيا، فعكست الإعداد المتزايدة للفنادق حجم التجارة المتطورة، وعدد التجار المتزايد والذين اتخذوا من الفنادق اماكن سكن لهم اثناء رحلاتهم التجارية.

شكلت هذه الصور العمرانية الثلاثة (المنازل، الحمامات، الفنادق) صور مصغرة للعمارة العربية المتواجدة في الشمال الافريقي، والتي اختلفت بتفاصيلها وتصاميمها عن العمارة العربية في مناطق المشرق، وكذلك ابتعدت عن التكلف في الزخرفة والتصاميم المعقدة لكنها عكست واقع الولاية البسيط الذي تميز بتواضع تطوراته الاقتصادية أو الاجتماعية، وهي مسألة طبيعية في مجتمع يخضع لسيطرة الدولة العثمانية التي حصرت همها بتحقيق مطامعها الاستعمارية على حساب تطور الولاية ورفع مستوى معيشة سكانها.

اتبعنا في هذا البحث المنهج التحليلي المعتمد على تحليل النصوص التاريخية واستنتاج الحقائق، وواجهنا مصاعب تقف في مقدمتها قلة المصادر أن لم نقل ندرتها خاصة تلك المتعلقة بالمواضيع الاجتماعية التي تعاني من قلة الدراسات فيها، ومع هذا فقد حاولنا ان ننقل صورة ولو بسيطة لجزء من التاريخ الاجتماعي في الشمال الافريقي.

اعتمد في كتابة هذا البحث على مجموعة مهمة من المصادر والوثائق ، فضلاً عن الدوريات، وكتب الرحالة الاجانب التي اغنت مفردات البحث بمعلومات قيمة قلما نجد لها مثيلاً في مصادر اخرى، فضلاً عن أهميتها كون الرحالة كانوا معاصرين للاحداث لذا جاءت كتاباتهم واقعية ومهمة.

المنازل

من الاهمية, ونحن نتحدث عن بعض الفنون المعمارية في ولاية طرابلس الغرب إن نتطرق إلى البيت الطرابلسي سواء من حيث عناصره او مكوناته, او من حيث الاسس التصميمية والمعمارية التي اشتهر بها, ومدى تاثير البيت الطرابلسي بالنماذج المعمارية العربية او الاوربية.

تميزت المنازل الطرابلسية, شانها شان بقية المنازل المنتشرة في عموم الولايات العثمانية ببساطتها وعدم تعقيدها, الامر الذي يعكس مستوى الحياة الاقتصادية البسيطة لعموم سكان الولاية الذي يعمل غالبيتهم بالتجارة والزراعة, وعموما تقسم المنازل إلى ثلاث اقسام.

1- المنازل المتنقلة (الخيم):-

عرف عن سكان البادية حبهم للتنقل تبعا لوجود المراعي والماء لدوابهم, لذلك لم يألفوا السكن في مساكن ثابتة بل اعتادوا السكن في الخيم, والتي تصنع من الجلد او الحصير او القش[1]، ويطلق على مجموع الخيم اسم (مضارب), فرئيس العائلة يسكن مع اشقائه وابنائه وعوائلهم في صف واحد من الخيم، والتي عرفت بنظافتها وتنظيمها[2] فهي تصف بشكل منظم لابصورة عشوائية. وقد حاول الوالي راسم باشا(1881- 1896) اغراء القبائل البدوية المتنقلة بالاستقرار والسكن في منازل ثابتة من خلال بناء مساكن وقرى خاصة بهم, فقد وعدهم بتجهيز هذه المساكن بالمدارس والمستوصفات لكن استجابة سكان البادية لم تكن مشجعة[3], الامر الذي قضى على هذا المشروع.

اما سكان الريف من الفلاحين, فقد اعتادوا هم ايضا السكن في الخيام, ولكن في فصل الشتاء فقط, اما في فصل الصيف ومع اشتداد حرارة الجو فينتقلون للسكن في اكواخ صغيرة مصنوعة من القش الذي يقلل من حرارة الجو وتبنى هذه الاكواخ بالقرب او داخل الحقول الزراعية التي يعملون بها, وغالبا ما تبنى مجموعة من الاكواخ في مكان واحد, مكونة بذلك مخيم خاص, وتتولى الكلاب مهمة حماية الاهالي, الامر الذي يمنع من دخول أي شخص غريب داخل المخيم[4].

اما الطوارق (وهم عرب الصحراء) فلهم بيوتهم المتنقلة ايضا, والمكونة من اعمدة خشبية اربعة يصل ارتفاع العمود الواحد (120 سم^2) يتم غرسها برمال الصحراء بشكل مربع وتحاط بحصير او قماش وفي احيان قليلة تسقف بمظلة حجبا لاشعة الشمس, اما الارضية فتفرش بالبسط المصنعة محليا من جلود الحيوانات[5].

ونتيجة طبيعية لتنقل هؤلاء السكان من مكان إلى اخر, فقد افتقدت خيمهم لقطع الاثاث الكبيرة, فأثاثهم في الغالب لايتعدى ادوات الطبخ والفرش والاغطية البسيطة, أي من الاشياء التي يسهل حملها عند تنقلهم من مكان لاخر, ولايختلف الامر بالنسبة للاكواخ فالرحالة (ادوارد راي) الذي زار الولاية في هذه الحقبة الزمنية يصف مشاهدته لبعض الاكواخ , فقال لوصفه كوخا معينا ((انه منظم ومرتب به بعض الاثاث البسيطة وبعض الاواني الفخارية والحصر ومدفأة طينية))[6].

2- المنازل المحفورة

تميزت منطقة غريان ذات الطابع الجبلي, بمنازلها المنحوتة من الحجر تحت الارض, وذلك نتيجة للعامل المناخي للمنطقة التي عرفت بشتائها القارص البرودة, وصيفها اللاهب الحرارة لذلك اتجه الاهالي لنحت بيوتهم داخل الارض الجبلية وبطول يصل إلى عشرين ذراعا[7] وعرض يصل إلى عشرين ذراعا ايضا, ويتم الدخول إلى حجرات المنزل التي تميزت بصغر مساحتها عبر الابواب الضيقة، ويلاحظ على جدران المنزل اثار الفؤوس التي حفرتها، وبالنسبة لباب المنزل فيكون مربع الشكل ومحاط بإطار من الزخارف غير المنتظمة ويؤدي إلى فناء المنزل عبر ممر منحدر معوج يشبه النفق, وهناك فتحة في فناء المنزل تحوي على ماجل او وعاء كبير يحفظ فيه مياه الامطار التي يعتمد عليها سكان المنزل في تلبية احتياجات الاسرة اليومية[8] ولاتزال هذه المنازل التي تشكل ظاهرة معمارية مميزة لمنطقة غريان تستخدم حتى وقتنا الحالي من قبل عدد غير قليل من الاسر الليبية في السكن, وخاصة في فصل الصيف الحار لما تتميز به من برودة جو غرفها مقارنة بدرجات حرارة الجو المرتفعة.

3- المنازل المبنية

تميزت المنازل الطرابلسية, وكما نوهنا سابقا ببساطتها وعدم تعقيدها, لكنها بالمقابل عرفت بنظافتها وترتيبها, وهذا ما اتفق عليه غالبية الرحالة الذين زاروا الولاية خلال هذه الحقبة التاريخية او الحقب السابقة, فالرحالة الاسباني ليوافر يكانوس الذي زار الولاية في القرن السادس عشر, قال إن المنازل والحوانيت في طرابلس نظيفة جدا اذا ما قورنت بمثيلاتها في تونس[9]. اما الرحالة الاسباني علي بك فيصف المنازل بانها ((منتظمة وبنيت بطريقة جيدة واغلبها ذوات بياض ناصع, ويقترب طرازها المعماري من الطراز الاوربي مقارنة بالطراز العربي))[10] وبالمقابل فقد وصف رحالة اخرون المنازل بالبساطة وعدم التنظيم، فالرحالة انطواني جوزيف كاكيا يذكر إن غالبية البيوت عديم التنظيم وذات بناءات واطئة[11]. ويصف الطبيب الالماني فون بأن بناء البيوت كان غاية في البساطة[12], في حين كان للرحالة الايطالي جوستنيانوروسي (1901– 1902) رأي اخر, فقد وصف منازل الحي العربي بانها ((بنايات غريبة ذات طابع فني، أبوابها مغلقة تمنح المشاهد شعورا بالغموض والسر, بينما يقع العكس في المنازل اليهودية, إذ أبوابها مفتوحة تماما وبمكن للسائح الا يكتفي بالنظر اليها بل يمكنه إن يدخلها دون اعتبارا او حذر))[13].

الواقع إن هذه الصور التي نقلها الرحالة عن بساطة المنازل هي صورة حقيقية لواقع العمارة في عموم مناطق المغرب العربي حيث عرفت ببساطة منازلها وعدم استخدام فنون العمارة والزخرفة في بنائها ويرجع ذلك لبساطة الاهالي وانخفاض المستوى المعاشي لعموم اهالي الولاية التي كانت تعاني من مستوى اقتصادي منخفض في ظل السيطرة العثمانية المباشرة. والتحكم بخيرات الولاية.

عرفت الولاية نوعين او نمطين من البناء، الأول النمط البسيط التقليدي والذي انتشر في الواحات والمناطق الريفية والتي تميزت ببساطة بنائها وكونها ذات طابق واحد, وتبنى غالبا من الحجر الرملي الذي يستخرج بعد حفر الطبقات الرملية السطحية من فوق الارض, ويستخدم الطين، كذلك، في البناء الذي يتكون من طابق واحد, وبتصميم بسيط جدا مكون من فناء مكشوف تحيط به مجموعة من الحجرات ذات جدران غير مرتفعة وغير سميكة، لذلك فان هذه الجدران تنهار بسرعة او تظهر بها حفرة اذا ما تعرضت إلى لكمة قوية اما سقف المنزل فيستخدم له جذوع النخيل التي تصف واحدة جنب الاخرى ثم يوضع عليها جريد النخيل وتغطى بطبقة سميكة من الطين، وبعض المنازل تكتفي بجريد النخيل كسقف للمنزل فلا يضعون طبقة الطين[14] وقلما توجد نوافذ في هذا النوع من المنازل فاشعة الشمس تدخل من فتحة الباب او من طاقات صغيرة مختلفة الاشكال تخترق الجدار الطيني, واذا وجدت نوافذ فهي بسيطة وليس لها زجاج, وينطبق الامر كذلك على الابواب التي تتميز ببساطتها فهي تصنع من الواح ماخوذة من جذوع النخيل ومثبتة بعضها بالبعض بواسطة اربطة جلدية مصنوعة من جلد الجمل[15].

اما ارضية هذه المنازل فتكون من الرمل الناعم, وقليل من الاسر, ذات الامكانيات المادية الجيدة تستطيع ان تغطي ارضية المنزل بالبسط وتستخدم فرشات من وبر الماعز لغرض الجلوس او النوم ويتم تبديل رمل المنزل بعد مرور مدة من الزمن نتيجة للاستخدام اليومي برمل ابيض نقي بعد إن ترفع الرمال القديمة وبعمق يقدر سمكه شبر او شبرين وتكون الرمال الجديدة بيضاء ناعمة ونظيفة إلى درجة إن الشخص الجالس عليها لاتتسخ ملابسه اذا ما لمس هذه الرمال[16].

اما النمط الثاني من المنازل والتي تميزت بها مراكز المدن فهي منازل المستقرة والمبنية من الحجارة والتي تشابه مواصفاتها واسسها المعمارية مع غالبية المنازل في منطقة حوض البحر المتوسط باستثناء منازل الجاليات الاجنبية التي تتميز بطرازها الاوربي.

اشتهر المنزل العربي عموما والمنزل الطرابلسي خصوصا بتركيزه على الفناء الداخلي المفتوح، والذي يعرف عاميا بالحوش[17] الذي يعد عنصر الحركة والاتصال بين اجزاء المنزل فضلاً عن مميزاته المناخية، فالحوش يضم عدة ابواب تؤدي الى حجرات المنزل التي تكون منفصلة الواحدة عن الاخرى (أنظر الملحق رقم (1)) والتي لايتجاوز عددها ثلاث حجرات، والتي تتميز بطولها وعدم اتساعها، فلا تقل مساحتها عن (50مترا) وتقسم الحجرة الواحدة إلى ثلاثة اقسام يعد القسم الاوسط اكبرها بينما يتساوى القسمان الاخران من حيث الحجم والمساحة ويستخدم القسم الاوسط لاستقبال الضيوف والمعيشة ويوجد في نهايتي هذا المكان جزء مفصول يعرف بـ(الخلوة) يزود بمنصة خشبية ترتفع

حوالي (120 سم) عن مستوى ارضية الحجرة, ويستخدم الجزء العلوي من المنصة كسرير اما التجويف الداخلي فيستخدم كمخزن للادوات المنزلية مثل اواني الطعام والملابس[18]. وتطل نوافذ الغرف على وسط الحوش وهي لاتصنع من الزجاج في اغلب الاحوال بل من الخشب المشبك والمتداخل بشكل جميل او ما تعرف باسم المشربيات (ينظر الملحق رقم (2)) مما يسمح بدخول اشعة الشمس عبر فجواته الصغيرة إلى داخل الغرف, وخلف هذا الخشب توجد قضبان حديدية غليظة وصلبة تنتصب على فتحات النوافذ[19].

وبالنسبة لارضية الغرف اوما تعرف عند اهالي طرابلس باسم (اللوطة) فهي تتكون من تربة خام تضم الكثير من الصدف فهي نادرا ماتكون من البلاط وهذا النوع من الارضية يوفر جوا رطبا لطيفا خاصة في فصل الصيف، اذا ما علمنا انه يرش بالماء, وهي الطريقة المستخدمة في التنظيف اعتمادا على رش الماء, اما في فصل الشتاء, ولطبيعة مناخ المنطقة البارد, فتفرش ارضية الغرف بالحصر والسجاجيد للتقليل من برودة الجو[20].

وبالنسبة لحجرة الضيوف والتي تعرف باسم (المربوعة) او (العلية) فتبنى في الناحية الخارجية من المنزل، وتتميز بكبرها وفخامتها وانعزالها عن حجرات المنزل الأخرى, فضلا عن انها الحجرة الوحيدة التي تطل نوافذها على الشارع, تميزا عن بقية الحجرات التي تظل نوافذها على فناء المنزل, وهذه الميزة جعلت من رب الاسرة, الشخص الوحيد الذي يستخدم هذه الحجرة فهو يحتفظ فيها بخزانته, واموره الشخصية, ويستقبل فيها ضيوفه الرجال, ويعقد فيها جلسات اللهو والسمر, لذا لايسمح لاي فرد من افراد الاسرة الدخول اليها دون اخذ الاذن منه[21].

وبالنسبة للمطبخ, الذي يعد من الحجر الاساسية في المنزل لكونه يستخدم في اعداد الطعام فيتميز ببساطة بناءه واثاثه الذي يقتصر على ادوات الطبخ الضرورية ولكن اهم مايميز المطبخ الطرابلسي هو وجود الموقد الضخم او مايعرف باسم (الدكانة) (ينظر الملحق رقم 3).

تستخدم فتحات المواقد العليا (الكانون) كمكان للفحم الذي يعد الوقود الاساسي الذي يتم طبخ الطعام به, بينما تتحدد مهمة الفتحات الامامية بالتهوية, اما الدخان المتكون جراء اشعال الوقود فيتسرب عبر المدخنة او مايعرف باسم البابور (ينظر ملحق رقم 4) التي تبنى عادة في اعلى المنزل والتي تكون ذات شكل قريب إلى القبة[22].

ومن اماكن البيت المهمة هي الحمام وبيت الراحة واللتان تكونان منفصلتان الواحدة عن الأخرى خاصة وان غالبية المنازل لاتتوفر بها الحمامات, فبالنسبة لبيت الراحة او بيت الماء فقد وصفه الرحالة افالد بانزة بالوصف التالي (ينظر الملحق رقم 5) ((دورة المياه.... تختلف فتحاتها في الشرق عما هي عليه في اوربا, فهي ليست للجلوس بل يقرفص المرء فوقها وقدماه على حجرين مرتفعين عن الفوهة بحيث يحافظ عليهما من الرطوبة والبلل.... لاشك إن هذا النوع اكثر طبيعة وانجح مما هو لدينا... وهم يصبون الماء من جرة فيسيل مع ما يجرفه إلى حفرة بجانب البيت او يجري عبر قناة صغيرة تصب في البحر))[23].

وفي هذا الوصف دلالة على الاهتمام بالنظافة طبقا للشريعة الاسلامية, واهمها فصل الحمام عن بيت الراحة, وطريقة بناء بيت الراحة فضلا عن طريقة تصريف المياه، التي لاتسمح بتجميع المياه مما يؤدي إلى تجمع الاوساخ والجراثيم.

اما وسط المنزل, وهو اهم اركان المنزل, فيعرف بوسط الحوش الذي يضم عدة ابواب تؤدي إلى حجرات المنزل التي تطل بنوافذها الخشبية على وسط الحوش ويبلط وسط الحوش بعدة طرق تبعا للحالة الاقتصادية لصاحب المنزل فالبعض يصبه بالاسمنت الاسمر الشبيه بالرخام وبعضهم يبلطه بالرخام الابيض او الاسود وهو أغلى انواع التبليط، في حين يبلطه اصحاب الدخل المحدود بالحجارة, او يقتصرون على رشة بالتراب وتتعدد استخدامات وسط الحوش فهو فضلا عن استخدامه لجلوس افراد الاسرة فيستخدم لاعداد المؤن مثل تجفيف التمور والخضروات واعداد المعجنات في مواسم الاعياد[24]. فضلا عن ذلك فيتخذ من وسط الحوش مكانا لعقد الاحتفالات والمناسبات الخاصة كالزواج او حالات الوفاة فتقوم ربة المنزل بفرش أرضية الفناء بالحصر او البسط, وتوضع حول الفناء وسائد حريرية تتخذ كمقاعد للجلوس عليها, اما الجدران فتغلف بالسجاد, ويغطى وسط الحوش بجادر (خيمة) كبير للوقاية من حرارة

الشمس باعتبار إن غالبية احتفالات الزواج تتم في فصل الصيف وهذا الامر يتطلب اموالا كثيرة ولكن بالمقابل يتحول المكان إلى بهو رائع لعقد جلسات الاحتفالات[25].

ووسط الحوش او الفناء يتميز بكونه غير مسقف، أي مفتوح إلى الاعلى وبذلك تتم تهويته واضاءته عن طريق فتحته العلوية فضلا عن تهوية واضاءة حجرات المنزل الأخرى[26],وبذلك تستبعد الفتحات والشبابيك على الطرقات باستثناء حجرة المربوعة وهذا يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي التي تحفظ للبيوت اسرارها عكس منازل اليهود والأوربيين التي عُرف عنها في هذه الحقبة بان ابوابها غالبا ماتكون مفتوحة وشبابيكها تطل على الطرقات الأمر الذي يسمح للمارة الاطلاع عليها فابواب المنازل الطرابلسية تتميز بانها لاتؤدي إلى وسط الحوش مباشرة وانما تؤدي في البداية إلى صالة وسيطة تعرف بالسقيفة التي تمنع مشاهدة دواخل المنزل من قبل المارة, هذا من جانب, ومن جانب الاخر تستخدم كمكان لأنتظار واستقبال الضيوف إلى حين دخولهم إلى حجرة المربوعة[27], وتختلف جودة واشكال الابواب باختلاف المنازل والمستوى الاقتصادي لصاحب المنزل فهناك الابواب ذات الجودة العالية (انظر ملحق رقم 6) التي تكون ذات اطار حجري اصغر مصنوع من الحجر الرملي او الكلسي اما لوحتي او (فردتي) الباب الخشبيتين فتطليان باللون الاخضر، اما الابواب الاقل جودة فتكون اقل ارتفاعا من سابقتها واقل عناية في الصنع (ينظر الملحق رقم 7) فإطارها يكون بسيطا ومطليا بالكلس الابيض[28]. ولكن اهم مايميز الابواب في هذه المنازل هي المفاتيح فمفتاح المنزل يبلغ طوله, واستنادا لشهادة بعض الرحالة, حوالي ربع متر وان كنا نعتقد إن في هذا الامر بعض المبالغة، ويحرص الاهالي على ربط المفتاح بشريط ويلقوه على ظهورهم عند مغادرة المنزل[29] حرصا منهم على عدم ضياعه.

– ملائمة المنازل الطرابلسية للظروف المناخية

تميزت المنازل الطرابلسية بملائمة تصاميمها لبيئة مناطق الشمال الافريقي من خلال وجود عدد من العناصر التي تتناسب مع الظروف المناخية للمنطقة، فأول ما يلفت انتباه الزائر هو طلاء المنازل، إذ غالبية مباني الولاية مطلية بالطلاء الابيض (الجير) حتى إن المدينة وصفت بالمدينة البيضاء وهذا اللون يعد عاملا مساعدا على انعكاس حرارة اشعة الشمس وتقليل انتقالها للمباني, فضلا عن توهج اللون الابيض عند انعكاس اشعة الشمس على جدران المنازل[30], اما الجدران فتتميز بسمكها الامر الذي يوفر عازلا حراريا لاشعة الشمس وعازلا للاصوات فتبتعد المنازل عن الضوضاء الخارجية ومن الامور التي تساعد في الحفاظ على حرارة المنازل الطبيعية الاعتماد على نظام التظليل من خلال غرس الاشجار المظللة كشجرة الكروم داخل فناء المنزل، فضلا عن ذلك كله فقد عمد الاهالي على طلاء سطوح منازلهم بمادة الجير التي تحافظ على نظافة السطح من جانب وتساعد على انعكاس الحرارة وتقليل وصولها إلى داخل المنزل من جانب اخر وساهم تراص البيوت وقلة عرض الازقة في عدم تعرض مساحات كبيرة من المنزل لاشعة الشمس فاختصرت الجهات المعرضة للشمس على واجهة البيت والسطح فقط[31].

اما في فصل الشتاء الذي يتسم بالبرودة القارصة فيعتمد السكان في تدفئة بيوتهم على نار الفحم وكذلك لعدم توفر المدافئ ، وللتقليل من البرودة المنازل يتم فرش بعدد من الحصر والسجاجيد على الارضية لتقليل أثر برودة المنزل.

شكلت العوامل السالفة الذكر على تحسين المناخ داخل المنازل, وهو مايعرف اليوم معماريا بالبيت الطبيعي بمعنى البيت الذي يستغل الامكانيات الطبيعية لتوفير البيئة المناسبة للانسان داخل منزله.

– مصادر المياه في المنزل

مصادر المياه الاساسية في ولاية طرابلس الغرب هي مياه الامطار لانعدام الانهار داخل الولاية, لذلك دأبت جميع العوائل على تجميع هذه المياه في سطح المنازل, ويتم الصعود إلى سطح من سلم خشبي او حجري[32], وفي السطح يتجمع ماء المطر في ماجن تبلغ سعته السنوية (20م^3) ويتم نقل ماءه إلى صهريج يبنى تحت البيت عبر انابيب فخارية تسمى الحلقوم ويتم ربط هذه الصهريج مع حجرة المطبخ عن طريق فتحة ذات قطر يبلغ (30سم) وبذلك يتم تجهيز المنزل بالماء وفي المطبخ يحتفظ بالماء بخوابي فخارية تستخدم عند اعداد الطعام[33].

وتواجه غالبية الاسر مشكلة توفير المياه في حالة عدم تساقط الامطار مما يضطرهم لشراء ماء الشرب من الباعة مما يكلفهم دفع الكثير من الاموال فسعر الجرتين او الثلاث من الماء يتراوح مابين 3–4 متليك[34] وهو سعر ليس بالقليل خاصة للاسر ذات الامكانية المادية البسيطة لكنها تضطر لشراء الماء لاهميته الكبرى في المنازل.

وفي نهاية الحديث عن المنازل لابد من تسليط الضوء على بعض النقاط المهمة المتعلقة ببناء المنازل والتي ركز عليها بعض الرحالة الذين زاروا الولاية خلال هذه الحقبة او قبلها بسنوات ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الرحالة الاسباني (دومنجو باديا ليبليك) او ماعرف تاريخيا باسم (علي بك العباسي) الذي زار الولاية في سنة 1803– 1807 فيذكر إن تعدد الحجرات في المنازل الطرابلسية يرتبط بظاهرة تعدد الزوجات[35] وهذا الراي بعيد عن الصحة كل البعد فالمنازل بنيت لتسكن فيها مجموعة من الاسر فهناك حجرة الاب وحجرة الابناء المتزوجون الذين اعتادوا الزواج في بيت والدهم ثم الانتقال إلى منزل منفصل بعد مدة من الزمن، وهذا الامر يتطلب وجود عدد من الحجرات تتناسب وعدد الابناء.

وهناك من يزعم إن المنازل الطرابلسية تقترب في تصاميمها من المنازل الاوربية, وهذا الامر غير صحيح ودليلنا على ذلك هو وجود الفناء (وسط الحوش) داخل المنازل وهذا دليل على عربية تصاميمها ولكن ربما حملت بعض المباني لمسات اوربية نتيجة وجود عدد غير قليل من الجاليات الاجنبية داخل الولاية والتي استقر بعضها لسنوات طوال، فضلا عن جلب بعض عمال البناء وخاصة من مالطا لبناء بعض الابنية فتنتج عن ذلك وجود مباني اقتربت في تصاميمها من الطراز الاوربي، لكن تبقى غالبية المنازل تحمل طابع البساطة في التصميم والتأثيث بما يتناسب مع الحقبة الزمنية التي تتميز ببساطة السكان وضعف امكانياتهم الاقتصادية التي نجم عنها بساطة حياتهم العامة.

1– الحمامات

ارتبطت الحمامات بالمجتمع الإسلامي لارتباطها بنظافة الانسان وهذا ما دعى له الدين الإسلامي الحنيف الذي اكد على ضرورة النظافة والتطهر وقد جاء على لسان رسولنا الكريم قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((تنظفوا فان الاسلام نظيف)) لذلك عرف عن المدن العربية الاسلامية اهتمامها ببناء الحمامات سواء الخاصة منها ام العامة والتي كان يؤمها الناس على اختلاف طبقاتهم واجناسهم فقد كانت هناك حمامات للرجال واخرى للنساء، ومدينة طرابلس واحدة من المدن العربية الاسلامية التي اهتمت ببناء الحمامات شانها في ذلك شان بقية المدن العربية وان كانت اعدادها لم تكن بالكثرة الموجودة عليها في مدن الشرق الإسلامي.

اقتصر بناء الحمامات على العامة منها بشكل خاص, دون بناءها داخل المنازل, فخلال هذه الحقبة التاريخية, لم تعرف مدينة طرابلس شبكة للمياه او حنفيات, ولم تكن هناك شبكة لتصريف المجاري داخل المنازل التي كانت مزودة ببئر يتم تغذيته بالماء من المياه السطحية وماجل تجمع فيه مياه الامطار، فعندما يبني المنزل يحفر بئر خاص به وخزان تحت المنزل يجمع فيه مياه الامطار وخزان او بئر خاص به وخزان تحت المنزل يجمع فيه مياه الامطار وخزان او بئر اخر امامي لتجميع المياه الزائدة (مياه الصرف الصحي) ويعرف هذا البئر باسم (البئر السوداء) نسبة للمياه المتسخة الي تتجمع فيه, ويتم تفريغه هذا البئر من المياه كل شهر تقريبا[36].

لم تذكر المصادر التاريخية الشيء الكثير عن عدد الحمامات المتواجدة في مدينة طرابلس فالرحالة الاسباني (دومنجو باريا ليبيك) او ما يعرف باسم علي بك الكبير, الذي زار المنطقة بداية القرن التاسع عشر, اشار لوجود عدد من الحمامات لكنه لم يحددها صراحة فقط ذكر اهمها وهو الحمام الصغير او (حمام ضرغوت) الذي يرجع تاريخ بناءه إلى عام 1604 وبناه اسكندر باشا والحقه بجامع ضرغوت ولذلك يعرف احيانا بحمام ضرغوت[37] والحمام الكبير الذي بنى عام 1658 وحمام الحلقة[38]. وهذه الحمامات هي ذاتها التي ذكرها الايطالي فرانشسكو كورو, الذي ذكر انه عند حدوث الاحتلال الايطالي للمدينة عام 1911 كان يوجد بالمدينة ثلاث حمامات تركية[39].

وبالنسبة للحمامات الموجودة داخل مدينة طرابلس فاغلبها إن لم تقل جميعها مستمد في تصميمه وطريقة بناءه من الطراز المملوكي او الشامي او العثماني[40], لذلك فالداخل إلى هذه الحمامات لا يجد اختلافا يذكر فيها عن الحمامات المتواجدة في المدن الشامية او العثمانية.

وعرف عن تصميم الحمامات نوعين, الأول اتسم ببساطة تصميمه وبناءه, وهو الغالب على معظم الحمامات, حيث يتكون الحمام الذي يبنى من الرخام من حجرة داخلية مسقوفة ذات حرارة طبيعية تؤدي إلى حجرة اخرى دافئة ثم إلى حجرة ثالثة تتسم بسخونتها وذلك لتتدرج حرارة المستحم القادم من الخارج فلا يفاجئ بالحرارة العالية, وفي الحجرة الثالثة تتوزع حجرات حامية في كل حجرة صنبورين للماء, احدهما للماء الساخن والثاني للماء البارد. ويأتي بالماء من خزانين كبيرين للماء يقعان بالقرب من الحمام, ويكونان بمستوى اعلى من بناء الحمام, ويوقد تحت احدهما نارا توقد بالاخشاب او بنواة تمر او الزيتون او فضلات الحيوانات, وبذلك يتم توفير الماء الساخن. اما سقف الحجر فيتألف في الغالب من قبة او اكثر تحوي على فتحات صغيرة تغطى عادة بالزجاج الملون, الامر الذي يسمح بدخول اشعة الشمس إلى داخل الحمام[41].

اما النوع الثاني من الحمامات والتي تتسم بكبر مساحتها التي من اشهرها حمام ((ضرغوت)) فتكون اعقد تصميما فالحمام مكون من عناصر معمارية متعددة، وهي:-

1- المدخل. 2- القاعة الباردة. 3- القاعة الدافئة. 4- القاعة الحامية. 5- منطقة الخدمات العامة.

6- بيت النيران وخزان المياه.

بالنسبة للقاعة الباردة, فهي اول ما يصادف الداخل للحمام, وتخصص هذه القاعة لخلع الملابس وتتوسطها نافورة ثمانية الشكل وتعرف بالعامية باسم (الفسقية), وتقع بالاسفل من القبة التي تعلو القاعة والتي تزود بالنوافذ والشمسيات التي تدخل اشعة الشمس من خلالها للقاعة التي تضم عددا من الحجرات التي خصصت لخلع الملابس وارتدائها بعد الاستحمام, فضلا عن اتخاذها كمكان للراحة, وتقودنا هذه القاعة للقاعتين الاخرتين من الحمام ويبلغ ارتفاعها مع حجراتها حوالي 3/28 متر تقريبا[42].

بعد القاعة الباردة ومرورا بباب ضيق توجد القاعة الدافئة التي سميت بالدافئة نسبة إلى درجة حرارة القاعة التي ترتفع عن حرارة القاعة الاولى التي تكون باردة نسبيا, وتنعدم فيها الجدران الجانبية لذلك فالاضاءة الطبيعية تصلها من خلال فتحات علوية سداسية الأضلاع مرصوفة بشكل منظم ولأكثر من صف، وتأتي حرارة هذه القاعة من المياه الدافئة التي تصلها عن طريق صنابير تصب في أحواض للمياه الدافئة.

وبنهاية القاعة الدافئة يوجد باب صغير يقودنا للقاعة الثالثة التي تعرف بالقاعة الحامية, او كما يطلق عليها العثمانيون اسم قاعة (حرائر المسلمون Mozlman Harara) فهي تعد اكثر القاعات حرارة وتتميز بشكلها المربع ويتوسطها مرتفع مستطيل الشكل يرتفع عن ارضية القاعة بحوالي نصف متر, واخر شبه مربع وعلى هذين المرتفعين تجري عملية التدليك، اما بقية اجزاء القاعة فقد تم تقسيمها إلى اقسام ثلاثة منفصلة الواحدة عن الأخرى بواسطة حواجز من الرخام وتضم كل حجرة صنبورين للماء الأول للماء الساخن والثاني للماء البارد يصبان في حوض بيضاوي الشكل مصنوع من الرخام الأبيض، وفضلا عن هذه الاقسام تضم القاعة حجرات ركنية صغيرة مربعة الشكل تكون اكثر انعزالا من الاقسام الثلاثة السالفة الذكر وتكون مزودة بالمياه الحارة والباردة كذلك[44] وتخصص لبعض الاشخاص ممن يفضلون الاغتسال بمعزل عن الاخرين ودون ادنى مضايقة.

يعمل بالحمام عدد من العمال الذين تختلف مهام عملهم, فهناك من يستقبل المستحم, وثاني يعمل على تدليك مفاصل جسم المستحم بطريقة خاصة تقوم على طوي الذراعين ووضعها الواحدة فوق الاخرى على الصدر ثم شدها بقوة نحو ركبتيه ومن ثم ثنيها ومرة وهكذا تستمر عملية التدليك، بعدها يستلقي المستحم على بطنه ويبدأ العامل بتدليك ظهره لفترة من الوقت بعدها تبدأ عملية غسل الرأس الذي تستخدم فيها مادة شبيه للرماد تعمل على تنظيف الشعر. وبعد الانتهاء من عملية الاستحمام يزود المستحم بمئزر (منشفة) قطنية بيضاء اللون تتميز بخيوطها الشديدة الصلابة، والتي تصنع من الياف الاشجار وغالبا ما تجلب هذه المازر من مكة المكرمة عن طريق الحجاج[45].

ولم تقتصر هذه الحمامات على الرجال بل كان للنساء حمامات خاصة بهن فهناك حمامات عامة تخصص ايام معينة فيها لاستحمام النساء واخرى تكون خاصة للنساء تعرف بخصوصيتها من خلال وجود ستارة تغطى مدخل الحمام، فضلا عن الستائر التي توضع على بقية شبابيك الحمام[46].

وتعد حمامات النساء ملتقى اسبوعي للنساء حيث يتبادلن الاحاديث وتصف لنا الرحالة (ريتشارد تـوللي) التـي زارت الولاية قبل هذه الحقبة بمدة زمنية قليلة حمامات النساء بقولها ((هناك حمامات خاصة بالسيدات طوال سـاعات النهار وحتى غروب الشمس فيذهبن للتزين والتجميل وهن يصطحبن جواريهن وخدمهن الى هنـاك. فالواحـدة مـنهن تحتاج الى الكثير من الخدم بعد ان تستحم فجارية تغسل شعرها بماء زهر البرتقال, وثانية تقوم بتصفيفه ببذور خاصـة تحضر من العطور القوية. من العنبر المحروق والقرنفل والمسك وجوزة الطيب))[47].

هذا الوصف لحمامات النساء خاصة للعروس، فمن العادات المتوارثة للاهالي, والمتعلقة بطقوس الزواج والتـي مازال التمسك بها حتى وقتنا الحالي هي الذهاب الى الحمام قبل يومين من الزواج وتحديدا يوم الثلاثـاء ويـتم ذلـك بمراسيم خاصة وبصحبة الاهل والاقارب وترديد الاغاني والاهازيج.

وهناك عادة قديمة ارتبطت باهل طرابلس هي زيارة الحمام كل يوم اربعاء ولمدة اربعين يومـا بقصـد طلـب الحاجة وتوسيع رزق الانسان[48]. وان كان في هذا الامر بدعة وجهل فانه من جهة اخرى يدل على الاهتمام بالنظافـة وضرورة الاستحمام وزيارة الحمامات باستمرار خاصة ما عرف عن اهالي المنطقة اهتمامهم العالي بنظافـة انفسـهم واماكن سكناهم.

2- الفنادق

لم تعرف مدينة طرابلس الفنادق في العصور الوسطى، فلفظة فندق تعد لفظا مستحدثاً فالغريب الواصل للمدينـة تتم استضافته في احد منازل الاهالي وفي احيان اخرى تكون خلوات المساجد والربط محطة لاقامة الضـيوف، لكـن تطور الحياة التجارية وما رافقها من تطور في اوجه الحياة المختلفة اوجب ايجاد محطة يؤمها الغرباء القادمين للمدينة لذلك ظهرت الخانات[49] فلفظة الفندق تعد دخيلة على المدينة فالكثير منهم يرجعها الى اللغة الفارسية الذين اخذ مـنهم تصميم الفندق.

تعد الفنادق من المكملات الاساسية لمؤسسة الاسواق التي تعد من المعالم المهمة لمدينة طرابلس، فالفنادق اقيمت لتوفير اماكن لاقامة التجار الغرباء القادمين للمدينة، ولاختلاف هويات التجار فقد كانت هناك فنادق خاصة لكل بلـد او قومية فهناك فندق للتجار الفرنسيين واخر خصص للبنادقة[50], وهذا الامر يعكس كثرة التجار وبالتالي ازدهار حركـة التجارة في المدينة.

تبرز اهمية الفنادق بالنسبة للنشاط التجاري من خلال مواقعها فقد اقيم عدد غير قليـل منهـا داخـل الاسـواق وبالقرب من المراكز التجارية مثل فندق (الخوجة) القريب من سوق الترك الذي تم تخصيصه لتخزين البضـائع التـي تعرض بالسوق وفندق (جيجة) الواقع في سوق النعال والذي خصص لتخزين السلع الواردة من بلـدة جيجـا الواقعـة جنوب نهر النيجر[51], والتي يعتقد ان الفندق سمي بهذا الاسم نسبة الى اسم المدينة التي تجلب منهـا البضـائع. ولـم يقتصر الحال على وجود الفنادق بالقرب من الاسواق بل تعداه الى اقامة البعض الاخر بالقرب مـن المـوانئ ومـن اشهرها فندق (علي القرمانلي) الذي يرجع تاريخ بنائه الى زمن الاسرة القرمانلية (1711- 1835) وتحديدا عام 1748 وعكس بناءه في هذا الموقع تحديدا اهمية التجارة البحرية للمدينة.

خضعت الفنادق لتنظيمات معينة فابوابها تفتح وتغلق في مواعيد ثابتة فلا يسمح الدخول او الخروج منها في غير هذه الاوقات فبعض المصادر تذكر ان اذان الفجر هو الوقت المحدد لفتح ابواب الفنادق واذان المغـرب هـو موعـد اغلاقها[52] وكان لكل فندق حراس مسؤولين عن توفر الامان والراحة للنزلاء فضلا عن مهامهم بتاجير المخازن وقبض مبالغ الايجار[53].

لم يرتبط نشاط الفنادق بالجانب التجاري فحسب بل كان لها وظائف اخرى فقد كانت تستقطب الوافدين للمدينـة ممن تكون اقامتهم غير ثابتة وخاصة الجنود الذين كانوا يقيمون في الفنادق وابرزها فندق (الطبجية) في بـاب البحـر, وفندق (جيجة) في السوق الكبير الذي يقطنه رجال المدفعية والفندق الكبير الذي يقيم فيه الانكشارية[54].

وبالنسبة لفنادق مدينة طرابلس فلم تتميز عن بعضها البعض الا بحجمها ومساحتها فشكلها الهندسي وتصـميمها الداخلي يكاد يكون واحدا فهي تتكون من دورين او ثلاثة وجدرانها الخارجية عديمة النوافذ ويتوسطها فناء تحـيط بـه

غرف صغيرة لمبيت النزلاء، فيما يخصص الفناء لمبيت الحيوانات ويغلب اللون الابيض على جدران الفندق التي تكاد تخلو من مظاهر الزخرفة (ينظر الملحق رقم 8) شانها في ذلك شان بنايات المدينة الاخرى التي يغلب عليها اللون الابيض.

وقد خضعت الفنادق للنظم الضريبية, فقد كان هناك نوعين من الضرائب الثابتة والعرضية, فالضرائب الثابتة حددت قيمتها قبل عام 1835, وتحديدا عام 1832 بريال[55] عن كل فندق، اما الضرائب العرضية فتتمثل بما كان يفرضه الوالي او الدولة من ضرائب لسد النقص الذي قد يحصل في ميزانيتها او لسد ديون الدولة الخارجية كما حدث عام 1832 عندما تم فرض ضريبة (20 ريال) على كل فندق لسداد ديون الدولة للاوربيين[56]. على ان هذه الضريبة اختلفت في الحقبة قيد الدراسة (1835– 1911), فقد تم تحديد قيمتها بـ (10%) من مجموع دخل الفندق و (8%) بالنسبة للممتلكات التي تستغل من قبل المالك مباشرة وقيمتها لاتتعدى في اكثر الاحيان (20.000) قرشا، وخفضت في فترة لاحقة حتى وصلت الى 5% فقط[57].

ضمت مدينة طرابلس عددا كبيرا من الفنادق مما يعكس تطور النشاط التجاري للمدينة سواء في الحقبة قيد الدراسة ام الحقب السابقة فالرحالة علي بك اشار خلال زيارته للمدينة بداية القرن التاسع عشر الى وجود عدد كبير من الفنادق منها فندق القرمني, فندق الباشا الكبير (1654) فندق الريح (1671) فندق القرمانلي (1748)[58] في حين ذكرت مصادر اخرى عدد اخر من الفنادق اهمها فندق المدينة، فندق الضفايري, فندق الغولة, فندق الخوجة, فندق الباشا, فندق جيجة, فندق الصابري, فندق القاجيحي, فندق بن سليمان وفندق الساقي[59], من دون تحديد اماكن هذه الفنادق.
اما العسكري الايطالي فرانشسكو كورو فقد ذكر انه عند احتلال ايطاليا للمدينة عام 1911 كانت تضم (35) فندقا[60], وهذا عدد غير قليل مما يعكس اهمية المنطقة التجارية والسياحية اما ابرز الفنادق التي أنشئت في الفترة 1835–1911 فهي:–

1– فندق بنت السيد (بن قدارة)

يقع هذا الفندق الذي اقيم على انقاض مبنى قديم يرجع الى القرن السابع الميلادي في منطقة باب البحر, وهو ملك للسيد (محمد السيد بن قدارة) الذي اعاد بناء الفندق عام 1854 واورثه لابنته لذلك عرف بفندق بنت السيد ويعرف احيانا بفندق (الجنويين) لانه كان مقر لقنصلية جنوا بداية انشائه، ثم استخدم كمدرسة لتعليم الحرف والصناعات التقليدية ومعمل للنسيج في حقبة الاحتلال الايطالي، اما في حقبة الانتداب البريطاني فقد استخدم كمركز للبوليس ثم مخزين للرخام بعدها تحول مركزا للشرطة وبقي حتى عام 1986 حيث تحول الى نقطة للامن الشعبي واخيرا وفي العام 1994 تم تخصيصه كنادي لباب البحر فاصبح مبنى استثماري بعد ان تمت صيانته من قبل مشروع تنظيم ادارة المدينة القديمة[61] أي طرابلس.

وبالنسبة لتصميم الفندق فقد تغير الكثير منه بفعل التغيرات التي احدثها الايطاليون على تصميمه الاصلي فقد استحدثوا واجه جديدة للفندق تقع امام قوس ماركوس اوريليوس الذي يرجع الى العصور اليونانية القديمة ويضم الفناء فناء يحوي حوضا رخاميا صغيرا مستدير الشكل به حنفيه تتغذى من خزان داخلي يملي من بئر قرب الفندق وهذا الحوض مخصص لنباتات الزينة والفناء مستطيل الشكل مبلط برخام اسود صغير الحجم، ويضم الفندق دورين الارضي ويحوي (10) غرف وحمام، وقسم من الغرف لها سقوف خراسانية، اما الدور الاول فيحوي (8) غرف مسقفة بسقف خشبي[62].

ويعتقد ان عدد الغرف سواء الدور الارضي او الاول كانا اكثر من هذا العدد ولكنهما اصبحا (18) فقط بفعل عمليات الهدم والبناء.

2– فندق القرقني (بن زكري):–

بني هذا الفندق عام 1856 وترجع ملكيته الى امين بك القرقني المعروف باسم (شيخ البلد) والى عواشة خانم، ثم انتقلت ملكيته الى فاضل بك مصطفى بن زكري ويعرف ايضا بالفندق التجاري لانه بني اساسا ليستخدم كنزل للمسافرين سواء من التجار او السياح, واستغل بعد الاحتلال الايطالي من قبل الحاكة ليستخدم كمكان لحياكة الاردية

والحوالي[63] وفي وقتنا الحاضر اصبح مكانا مخصصا لصاغة الذهب والفضة لموقعه المتميز الواقع في سوقي العطارة والصياغة.

يتميز هذا الفندق الذي يصنف من ضمن الفنادق ذات المساحة المتوسطة بمدخله الكبير ذي العقد الدائري الذي تعلوه بلاطات مزخرفة بزخارف هندسية ونباتية وهناك لوحة رخامية تذكارية باعلى المدخل كتب عليها مجموعة من الابيات الشعرية جاء في بعضها:-

فان مررت بهذا الخان مبتهجا ان المحاسن اجمعت فيه

وانظر ترى بهجة تسبي العقول بها وترى الطرف فيما صار يحويه

وان تكن ظاعنا قد جئت من سفر تجد به مسكنا والوكر تسليه

ولامحالة ان الساكنين به يدعون ربهم جهرا لبانيه

علي افندي ادام الله نعمته شيخ البلاد رفيع القدر منشيه 1273هـ

يضم مدخل الفندق بابين خشبيين الاول ضخم يعرف باسم (باب بوخوخة) والثاني متوسط الحجم يفتح على سقيفة مستطيله الشكل تضم سلما يقودنا للدور الاول وتضم السقيفة حجرتان تقعان على يسار الداخل الاولى تستخدم كمقهى، والثانية مقفلة ربما تستخدم كمخزن وبنهاية السقيفة يوجد باب يؤدي الى فناء تحيط به اربعة اروقة والفندق ذا طابقين الارضي ويحوي على (15) غرفة في حين يضم الدور الاول (27) غرفة وجميعها ذات اسقف خشبية[64] بمعنى انه يحوي (42) غرفة فضلا عن الحمام والمطبخ والفناء الذي يستخدم لمبيت الحيوانات.

3- فندق ميزران

عرف الفندق بهذا الاسم نسبة لمالكه الحاج (رمضان ميزران الطرابلسي) الذي بناه عام 1881 ليكون مقرا للغرباء والنزلاء لكنه تحول به الاحتلال الايطالي واصبح مكانا للحاكة ومبيت الصناع اما استخدامه الحالي فهو مستغل من قبل الباعة المتجولين والصاغة والحاكة[65].

ويتميز الفندق بمدخل ذو عقد دائري تعلوه زخارف تحمل اشكال ازهار، وللفندق باب كبير يؤدي الى فناء مربع الشكل به رواقان بهما عقود دائرية محمولة على اعمدة ذات تيجان قرمانلية[66]. وتحيط بالفناء الغرف البالغ عددها (13) فضلا عن دوره المياه، اما السلم الذي يقع امام المدخل الرئيسي فيقودنا للدور الاول الذي تحيط به اربعة اروقة المتميزة بعقودها الدائرية المحمولة على اعمدة ذات تيجان بسيطة واسقف خشبية ويضم هذا الدور (12) غرفة ذات سقف خشبي[67] وبذلك يكون مجموع غرفة (25) غرفة (ينظر الملحق رقم 9).

4- فندق ابو دلغوسة

عرف هذا الفندق بهذا الاسم نسبة الى الحاج (الصادق ابو دلغوسة) الذي قام ببنائه في هذه الحقبة الزمنية[68], وكان الغرض الاساسي من بنائه لاستخدمه كنزل للناس لكنه استخدم بعد ذلك من قبل اليهود لتخزين المواد العطرية بمختلف اضافتها ثم استغله الحاكة كمكان لنسج الاردية فضلا عن استخدامه كمخزن لتخزين بضائع المحال المجاورة للفندق في حين استخدمت غرف الدور الارضي كمحلات لتصنيع الذهب والفضة وفي وقتنا الحالي عاد الفندق الى وضعه الاول واستخدم كمكان لسكن الغرباء والضيوف. بالنسبة لتصميم الفندق الاصلي فقد اجريت عليه تحويرات عديدة خلال العهد الايطالي فمدخل الفندق تغيير لكن اثار المدخل القديم لاتزال موجودة فالمدخل يقودنا الى فناء مربع الشكل محاط بـ(12) غرفة مع حمام ذات اسقف اقبية ويضم الفناء سلما يقودنا للدور الاول الذي تحيط به ثلاث اروقة كل رواق بتقدمه حجر له عقود محمولة على اعمدة دائرية ذات تيجان دائرية اما الرواق الرابع فمطموس المعالم

ويضم هذا الدور (16) غرفة ذات اسقف خشبية[69] (ينظر الملحق 10) وبذلك يبلغ عدد غرف الفنـــدق (28) غرفة.

5- الفندق الهنشري

يعود تاريخ بناء هذا الفندق الى عام 1883- 1884 حسب ما مدون في اللوحة التذكارية الرخامية التي تعلو مدخل الفندق والتي تضم النص التالي ((بسم الله الرحمن الرحيم, والصلاة والسلام على سيدنا ومولانـــا محمد واله وصحبه وسلم وشرف عظيم بدا فندق مبارك انشاة المحترم التاجر الحاج محمد بن الحـــاج علـــى الهنشيري سنة 1301هـــ)).

يقع هذا الفندق في احد ازقة سوق الترك الشهير[70], ويعد هذا الفندق وحتى تاريخ قريب احـــد اكبـــر الاماكن لتخزين البضائع في طرابلس وبعد فترة استعمل لمبيت تجار القوافل الذين كانوا يتاجرون مع الحبشة والسودان فضلا عن استخدامه لمبيت الاغراب[71], وفي وقتنا الحالي تم تحويل نصف مساحة الفنـــدق الـــى محلات تجارية تقع واجهاتها على سوق الترك[72].

مدخل الفندق عبارة عن باب خشبي كبير تعلوه زخارف متعددة يطل على ممـــر مســـتطيل ذو ســـقف نصف دائري به عقدان كبيران كتب على العقد الثاني في لوحة رخامية تاريخ بناء الفندق وعلى يمين الممـــر المستطيل توجد (4) غرف، واحدة منها استخدمت كمقهى ويقودنا الممر الى فناء الفندق المربع الـــذي يضـــم عدد من الغرف فضلا عن السلم الذي يقودنا للدور الاول الذي يضم هو الاخر عدد من الغرف لانعرف عددها بالضبط نتيجة لتهدم اجزاء عديدة منه بقذائف الهاون التي سقطت عليه اثناء الحرب العالمية الثانية مما ادى لاضمحلال معظـــم معالمه الامر الذي يتعذر وصفه بشكل دقيق[73]. لكن من خلال الاثار الباقية نستنتج ان الفندق مكون من دوريـــن وبـــه اروقة محمولة على ثلاثة اعمدة, وربما كان يضم (10) غرف او اكثر فضلا عن الحمام.

6- فندق الغرباء

انشاه الوالي العثماني احمد راسم باشا (1881- 1896) في العام الاول لتوليته ولاية طرابلس الغرب أي عـــام 1881, على انقاض فندق قديم تعود ملكيته للبلدية ويقع بالقرب من باب البحر, خلف فنـــدق بنـــت الســـيد, وتعـــددت استخداماته, فاستخدم في بداية انشاه ليكون مقرا للغرباء القادمين للمدينة حتى انه سمي بفندق الغرباء تـــم تحـــول الـــى مستشفى عام، بعدها اصبح مكتبا رشديا عسكريا[74].

الفندق مكون من ثلاثة ادوار الدور الارضي يضم عددا من المحال التجارية التي ينفق ريعها على البلدية وعلى مستشفى حكومي, اما الدوران الاول والثاني, وهما المخصصان لايواء ضيوف الفندق فيضمان (16) غرفة بهما (150) سريرا[75], هذا فضلا عن الحمام والمطبخ ولم تذكر المصادر التاريخية وصفا للفندق ولكن الفندق عموما لايختلف عن الفنادق السالفة الذكر من حيث البناء والتصميم الداخلي الذي يعتمد على الفناء الداخلي الذي تحيط به الغرف.

7- فندق المسلاتي

تعود ملكية هذا الفندق للسيد محمود المسلاتي واخيه، والفندق مخصص لايواء الغرباء فضلا عـــن اســـتخدامه كمكان لتخزين وبيع الزيت والسمن[76].

ولايعرف بالتحديد السنة التي انشيء فيها الفندق ولا تحديدا لعمارته وتصميمه الداخلي لان الفنـــدق قـــد ازيـــل بالكامل وبنيت عمارة جديدة بدلا منه.

8- فندق الزيت

سمي هذا الفندق الذي تعود ملكيته لعائلة بن عثمان بفندق الزيت لان غرف الدور الارضي الستة كانت تستخدم لبيع الزيوت، والفندق مكون من دورين الارضي المكون من فناء غير مسقوف فضلا عن الغـــرف المخصصـــة لبيـــع الزيت اما الدور الاول فيتكون من (7) غرف وحمامين[77].

وقد تمت إزالة هذا الفندق بالكامل واقيم بدلا عنه بناء حديث، والسبب في ذلك ان هذا الفندق وفندق المسلاتي يقعان خارج اسوار المدينة القديمة لذلك ازيلت كافة المعالم القديمة عكس الفنادق الباقية التي تقع داخل المدينة القديمة والتي بقيت اثارها شاخصة الى وقتنا الحالي لتسجل لنا صورة من صور العمارة الاسلامية العربية في حقبة تاريخية مهمة من تاريخ هذه المدينة المهمة ولتعكس الاهمية التجارية للمدينة لارتباط الفنادق بالحركة التجارية التي كانت حركة مزدهرة في هذه الحقبة.

الخاتمة

من خلال الاستعراض السابق لملامح العمارة العربية في ولاية طرابلس الغرب، حقبة العهد العثماني الثاني، توقفنا عند مجموعة من الملاحظات المتعلقة بموضوع العمارة العربية، منها:

1- ان العمارة العربية ارتبطت بالواقع الاقتصادي ارتباطاً تناسبياً ، فهي تتطور وتتعقد تفاصيلها ومفرداتها مع التطور الاقتصادي، وظهر ذلك جلياً في ولاية طرابلس الغرب، ونتيجة طبيعية لاقتصادها البسيط فقد انعكس ذلك على ملامحها العمرانية التي غلب عليها جانب البساطة.

2- اختلفت المنازل والفنادق والحمامات في تصاميمها وطرق بناءها عن مثيلاتها في مناطق المشرق العربي التي عرف عنها ضخامة البناء وتعقيد التصميم، فضلاً عن الزخارف الاسلامية المركبة التي ميزت عمارة الشرق عن عمارة الغرب.

3- ان المنازل وحتى وقتنا الحالي لم تختلف في تصاميمها وبساطتها عن منازل الحقب السابقة، وخاصة بناء غرفة (المربوعة) التي تميز غالبية المنازل الطرابلسية والتي تحتفظ بقدسيتها واهميتها باعتبارها المكان المخصص لاستقبال الضيوف. من خلال مشاهدتي الشخصية لها في الوقت الحاضر.

4- عرف عن غالبية الفنادق تشابهها في التصميم الذي ابتعد عن مظاهر الزخرفة والتصميم المعقد.

5- اكدت طبيعة العمارة العربية في ولاية طرابلس الغرب ابتعادها عن التأثر بمظاهر العمران الاوربي الذي خلت منه ابنية الولاية، باستثناء بعض الابنية، خاصة الاحياء التي تقطنها الجاليات الاوربية والتي تميزت بطابعها الاوربي فغالبية من عمل في بناء هذه الاحياء هم ابناء الجاليات الاوربية انفسهم، خاصة المالطيون اللذين امتهن عدد غير قليل منهم حرفة البناء، ولكن هذا لايعني ان العمارة اكتسبت الطابع الاوربي، وخير شاهد على ذلك ان المنازل حملت الطابع الشرقي في البناء، وخاصة بوجود وسط الحوش (الفناء)، وعدم وجود شبابيك للغرف تطل على الخارج، بل يطل معظمها على داخل البيت، فضلاً عن وجود سطح المنزل الذي تتعدد استخداماته واهمها استخدامه للمنام، ولم يقتصر الامر على المنازل، بل شمل الامر كذلك الحمامات والفنادق التي تحتفظ بتصميمها وطابعها العربي حتى وقتنا الحالي.

6- عززت الاعداد المتزايدة للفنادق، التي ارتبط وجودها بتطور النشاط الاقتصادي، حجم التطور الاقتصادي للولاية، وان كان تطوراً بسيطاً، ولكن بمقارنته بالمناطق المحيطة يعد تطوراً كبيراً خاصة في القرن التاسع عشر، الذي ازدهرت فيه حركة التجارة بشكل كبير لكن هذا التطور بدء في التضاؤل مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

المصادر والهوامش

1- محمد سعيد القشاط, الطوارق عرب الصحراء الكبرى, الطبعة الثانية، مركز دراسات وابحاث شؤون الصحراء, ليبيا, 1989, ص81.

2- هـ. س. كاوبير, مرتفع آلهات الجمال، ترجمة: انيس زكي حسن, مكتبة الفرجاني, طرابلس, د. ت, ص58-59.

3- عبد السلام ادهم, وثائق تاريخ ليبيا الحديث- الوثائق العثمانية 1881- 1911, ترتيب ومراجعة: احمد صدقي الدجاني, منشورات جامعة بنغازي, ليبيا, 1974, الوثيقة رقم (20) والمؤرخة في 3 سبتمبر 1885, ص 41-42.

4- هـ. س. كاوبير، المصدر السابق, ص58.

5- عبد القادر جامي, من طرابلس الغرب الى الصحراء الكبرى, ترجمة: محمد الاسطى, دار المصراتي, طرابلس, 1973, ص173.

6- ادوارد راي, المغرب العربي طرابلس ولبدة والقيروان في القرن التاسع عشر 1877, ترجمة: مصطفى محمد جودة, مراجعة: عثمان الكعاك, طرابلس, د.ت. ص110.

7- الذراع = 46 سنتمتر.

8- محمد بن عثمان الحشائشي, رحلة الحشائشي الى ليبيا سنة 1895 (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب), تقديم وتحقيق: علي مصطفى المصراتي دار لبنان للطباعة والنشر, بيروت, 1965, ص199؛ تيسير بن موسى المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني الدار العربية للكتاب, ليبيا, 1988, ص336.

9- ادوارد راي, المصدر السابق, ص40.

10- خالد محمد الهدار، زيارة الرحالة الاسباني علي بك العباسي لطرابلس في اوائل القرن التاسع عشر, مجلة تراث الشعب, العددان الاول والثاني السنة الثالثة والعشرون, طرابلس، 2003, ص109.

11- Anthony G. Cachia, Libya under the second ottomav occupation (1835- 1911), Tripoli, 1945, p.107.

12- عماد الدين غانم, الطبيب الالماني ارفين فون باري 1846- 1877 ورحلته الى غات وبلاد الآبير, منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية- سلسلة نصوص ووثائق (24) طرابلس, 1995, ص80.

13- خليفة محمد التليسي, حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والاجانب, الدار العربية للكتاب, طرابلس, د.ت, ص198.

14- صادق مؤيد العظم, رحلة في الصحراء الكبرى بافريقيا, ترجمة: عبد الكريم شويرب, مراجعة: صلاح الدين السوري, منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية- سلسلة الدراسات التاريخية (34), طرابلس, 1998, ص72.

15- طرابلس مطلع القرن العشرين في وصف الجغرافي الالماني افالد بانزة ترجمة: عماد الدين غانم, منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية- سلسلة نصوص ووثائق, طرابلس 1997, ص80.

16- صادق مؤيد العظم, المصدر السابق, ص.ص73 - 74.

17- يستخدم لفظ (الحوش) للدلالة على المنزل وهي لفظة دارجة الى وقتنا الحالي في الجماهيرية الليبية.

18- خالد محمد الهدار, المصدر السابق, ص111.

19- Todd, mabel loomis, Tripoli the mysterious boston, small Maynard, 1912, p.108.

20- طرابلس مطلع القرن العشرين, ص.ص 162- 164.

21- بلدية طرابلس في مائة عام 1870- 1970, دار الطباعة, طرابلس, 1973, ص86.

22- طرابلس مطلع القرن العشرين, ص166.

23- المصدر نفسه, ص166.

24- علي المليودي عمورة، طرابلس المدينة العربية ومعمارها الاسلامي, دار الفرجاني , طرابلس, 1993, ص345.

25- ريتشارد توللي, عشر سنوات في بلاط طرابلس, ترجمة عمر الديراوي, دار المعارف المحدودة, لنـــدن, 1984, ص.ص 88-89.

26- علي المليودي عمورة , المصدر السابق, ص346.

27- المصدر نفسه, ص. ص 347- 348.

28- طرابلس مطلع القرن العشرين, ص125, ص115.

29- المصدر نفسه, ص168.

30- خالد محمد الهدار, المصدر السابق, ص111.

31- علي الملوردي عمورة, المصدر السابق, ص347.

32- فضلا عن اهمية السطح في تجميع مياه الامطار فيستخدم في تجفيف الاطعمة مثل التين والزبيب والتمر, فضـــلا عن استخدامه في النوم خلال ايام الصيف الحار عندما يهب نسيم البحر.

33- طرابلس مطلع القرن العشرين, ص167؛ علي المليودي عمورة؛ المصدر السابق, ص347.

34- عملة نقدية تستخدم في الولاية في هذه الحقبة التاريخية وتسك من معدن البرونز اما قيمتها فتساوي عشر بارات، واربعون بارة تساوي قرشا واحدا. عبد السلام ادهم وثائق تاريخ ليبيا الحديث وثيقة رقم 45, ص. ص74-76.

35- خالد محمد الهدار, المصدر السابق, ص111.

36- عبد الكريم عمر ابو شويرب, الاوضاع الصحية في المجتمع الليبي في الفترة مـــا بـــين 1835- 1950, مجلـــة البحوث التاريخية, طرابلس, العدد الثاني, 2000, ص16.

37- غاسبيري ميسانا, المعمار الاسلامي في ليبيا, ترجمة: علي الصادق حسنين, طرابلس, 1973, ص143.

38- خالد محمد الهدار, المصدر السابق, ص118.

39- فرانشسكو كورو, ليبيا اثناء العمد العثماني الثاني, ترجمة: خليفة محمد التليسي, دار الفرجاني, طـــرابلس, د.ت, 128.

40- تيسير ين موسى, المجتمع العربي الليبي في العمد العثماني، الدار العربية للكتاب, ليبيا, 1988, ص362.

41- غاسبيري ميسانا, المصدر السابق, ص143.

42- فاروق احمد شعبان, عمارة حمام ضرغوت بطرابلس ليبيا بين الاسس الهندســـية والجماليـــة, مجلـــة البحـــوث التاريخية, طرابلس العدد الاول, يناير 1988, ص159.

43- المصدر نفسه, ص161.

44- المصدر نفسه, ص. ص 161- 164.

45- ليونهارت راوولف رحلة المشرق الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين, ترجمة: سليم طه التكريتي, دار الحرية للطباعة, بغداد, 1978, ص 29.

46- المصدر نفسه, ص30.

47- ريتشارد توللي, المصدر السابق, ص.ص 90- 91

48- علي مصطفى المصراتي, مدخل الى المدخل, مجلة تراث الشعب, طرابلس, السنة الاولى, العدد الثالث, 1981, ص58.

49- تيسير بن موسى, المصدر السابق, ص360.

50- بول ماساي, الوضع الدولي لطرابلس الغرب, ترجمة: محمد مفتاح العلافي, منشورات مركـــز جهـــاد الليبيـــين للدراسات التاريخية، سلسلة نصوص ووثائق (18), طرابلس, 1991, ص120.

51- سعيد علي حامد, التجارة والاسواق في طرابلس عبر التاريخ, مجلة تراث الشعب, طرابلس, الســـنة 11, العـــدد الرابع, 1992, ص132.

52- ريتشارد توللي, المصدر السابق, ص90.

53- حسن الفقيه حسن, اليوميات الليبية, تحقيق: محمد الاسطى وعمار جحيدر, منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية, طرابلس, 1984, ص588.

54- المصدر نفسه, ص330؛ اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911, ترجمة: خليفة محمد التليسي، دار الثقافة، بيروت, 1974, ص241.

55- الريال =19 قرشا عثمانيا.

56- انعام محمد صالح شرف الدين, مدخل الى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي- دراسة في مؤسسات المدينة التجارية 1711- 1835, منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية سلسلة الدراسات التاريخية 37, طرابلس, 1998, ص47.

57- الصالحين جبريل محمد, النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب 1835- 1912, منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية- سلسلة دراسات تاريخية (43), طرابلس, 2000, ص 58.

58- خالد محمد الهدار, المصدر السابق, ص117.

59- حسن الفقيه حسن, المصدر السابق, ص330.

60- فرانشسكو كورو, المصدر السابق, ص128.

61- الفنادق بالمدينة القديمة طرابلس, منشورات مشروع تنظيم وادارة المدينة القديمة, طرابلس, 2001, ص75.

62- المصدر نفسه, ص.ص. 73- 74.

63- الحولي: هو الزي الشعبي او الرسمي للرجال الليبيين، ويتم ارتداده فوق الملابس فهو مشابه للعباءة وهناك نوعين قطني يتم ارتداءه في فصل الصيف, واخر مصنوع من الصوف يلبس في فصل الشتاء.

64- الفنادق بالمدينة القديمة اطرابلس, ص62.

65- المصدر نفسه, ص64.

66- قرمانلية: نسبة لعميد الاسرة القرمانلية التي حكمت الولاية للفترة من 1711 وحتى عام 1835 وهو العام الذي استطاعت فيه الدولة العثمانية من ارجاع سيطرتها المباشرة على الولاية.

67- الفنادق بالمدينة القديمة اطرابلس, ص64.

68- لم تذكر المصادر زمن بناء الفنادق ولاتوجد معالم تدل على تاريخ بناءه لكن المتفق عليه انه تم بناء في حقبة العهد العثماني الثاني.

69- الفنادق بالمدينة القديمة اطرابلس, ص.ص 67-71.

70- سوق الترك: وهو من اشهر اسواق المدينة ويعودنا تاريخ بنائه الى عمد الوالي العثماني محمد باشا الكرادغلي (1687- 1701) ويضم السوق محلات للبقالة وتجار الحرير والقطن ومحال للحلاقين ويتميز بطلاء جدرانه باللون الازرق ويغلب عليه الازدحام وتتميز محلاته بالنظافة. ادوارد راي, المصدر السابق, 38.

71- غالبية الفنادق يقطنها العزاب دون العوائل التي لم تعتاد السكن في الفندق بل تقطن البيوت المؤجرة.

72- سعيد علي حامد, المصدر السابق, ص58- 69.

73- الفنادق بالمدينة القديمة اطرابلس, ص72.

74- خليفة محمد التليسي ، المصدر السابق، ص185.

75- الفنادق بالمدينة القديمة اطرابلس, ص 75.

76- المصدر نفسه, ص76.

77- المصدر نفسه, ص76.

الملاحق

ملحق رقم (1)تخطيط للمنزل الطرابلسي

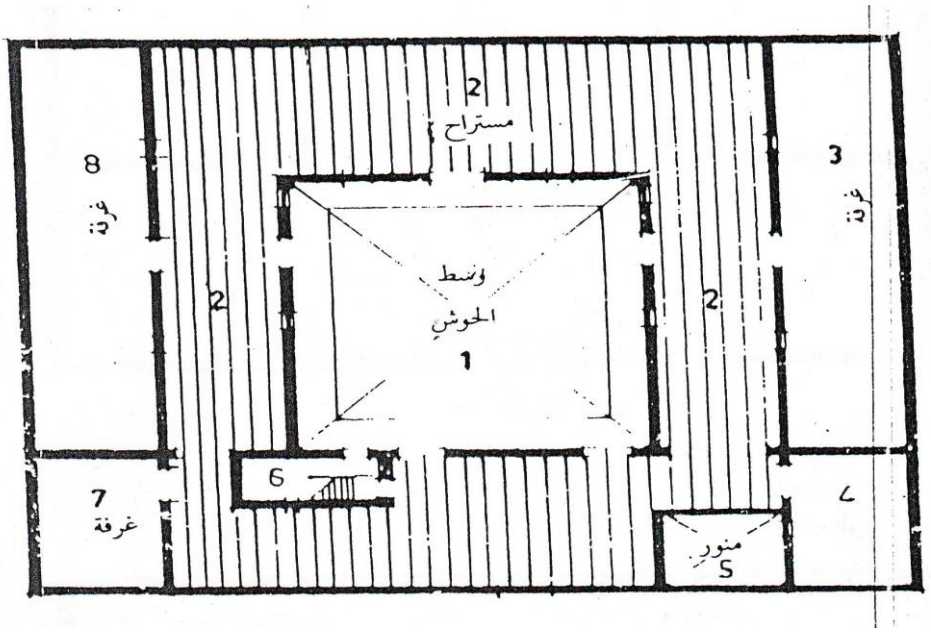

مسقط افقي للبيت الطرابلسي

محتوى الدور العلوي (الاول)

1- وسط الحوش
2- مستراح
3- غرفة رئيسية
4- غرفة تخديم (مرحاض ومطهرة).
5- منور لحوش الصغير
6- سلم رئيسي
7- غرفة صغيرة.
8- غرفة رئيسية

* المصدر: علي الميلودي، المصدر السابق، ص351.

ملحق رقم (2) صورة للمشربية

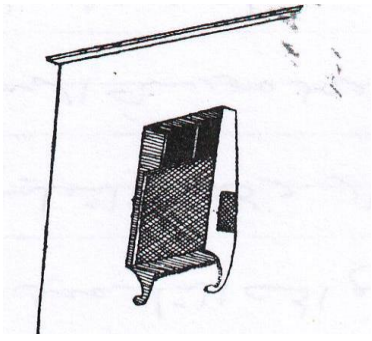

المشربية وهي شبك خشبي امام نوافذ الحريم التركي

*** المصدر: إفالد بانزة، المصدر السابق، ص147.**

ملحق رقم (3) صورة للدكانة

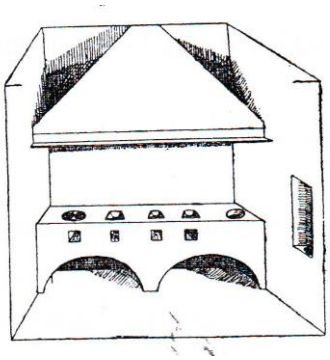

- **المصدر: إفالد بانزة، المصـــدر السابق، ص170.**

ملحق رقم (4) صورة للمدخنة (البابور)

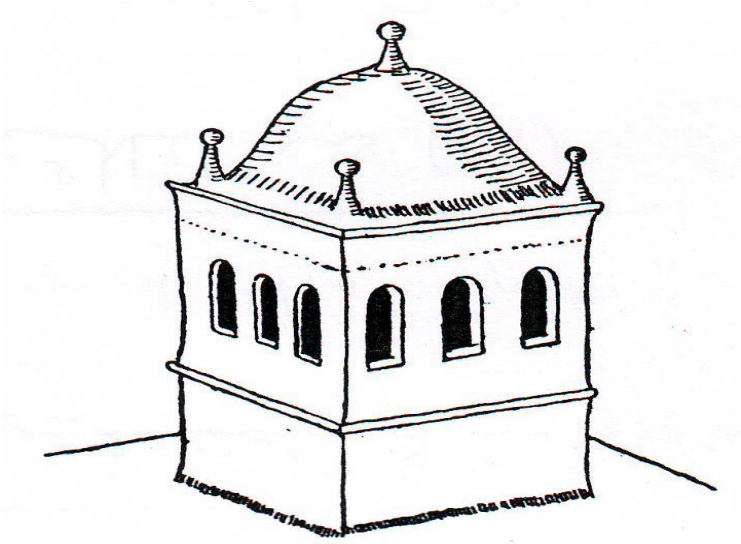

* المصدر: إفالد بانزة، المصدر السابق، ص111.

ملحق رقم (5) صورة لبيت الراحة

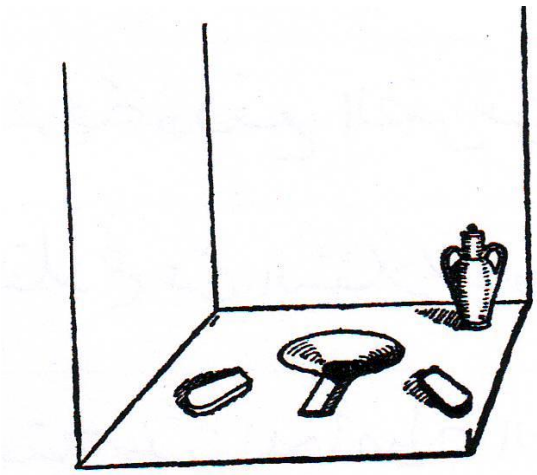

*** المصدر: إفالد بانزة، المصدر السابق، ص166.**

ملحق رقم (6) صورة لباب منزل جيد الصنع

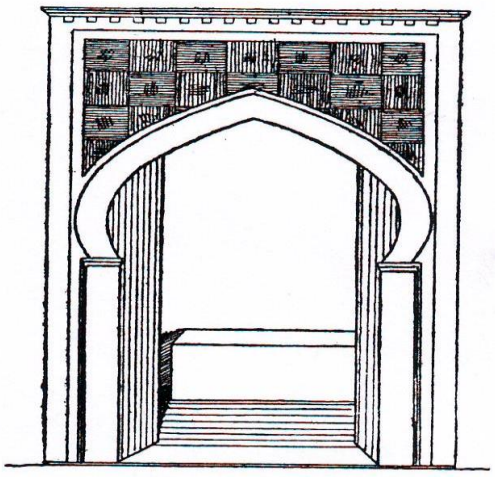

* المصدر: إفالد بانزة، المصدر السابق، ص125.

- المصدر: إفالد بانزة، المصدر السابق، ص170.

ملحق رقم (7) صورة لباب منزل بسيط

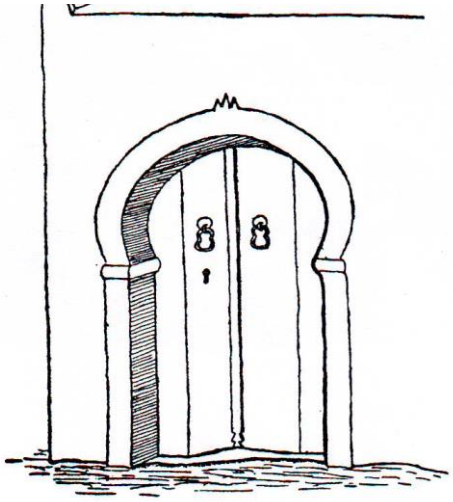

باب منزل بسيط في طرابلس وحوله إطار مطلي بالكلس الأبيض

* المصدر: إفالد بانزة، المصدر السابق، ص115.

ملحق رقم (8)

مخطط للدور الارضي لفندق ميرزان

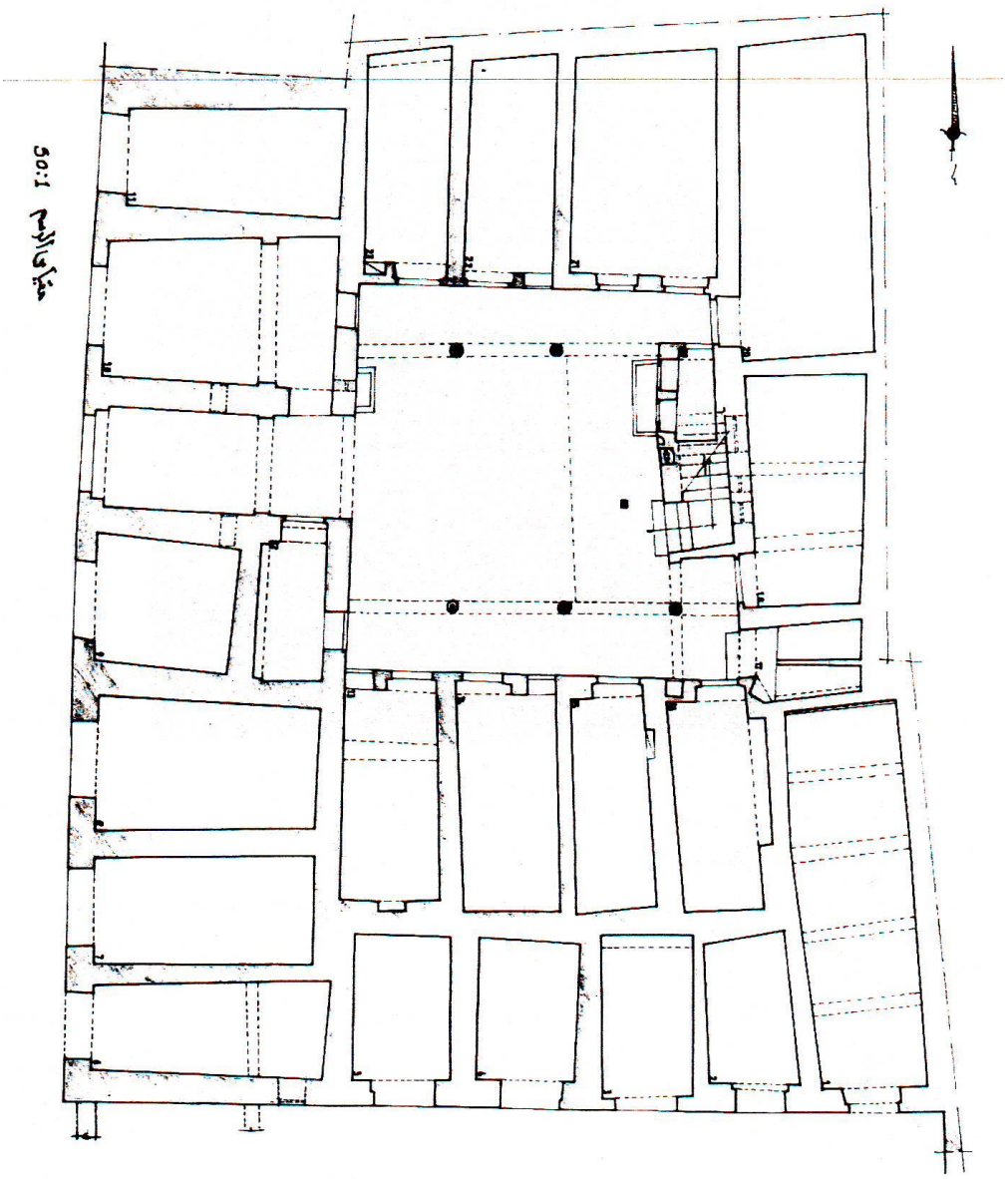

* المصدر: الفنادق بالمدينة القديمة أطرابلس، ص65.

ملحق رقم (9)

واجهة لفندق أبو دلغوسة ومخطط للدور الارضي

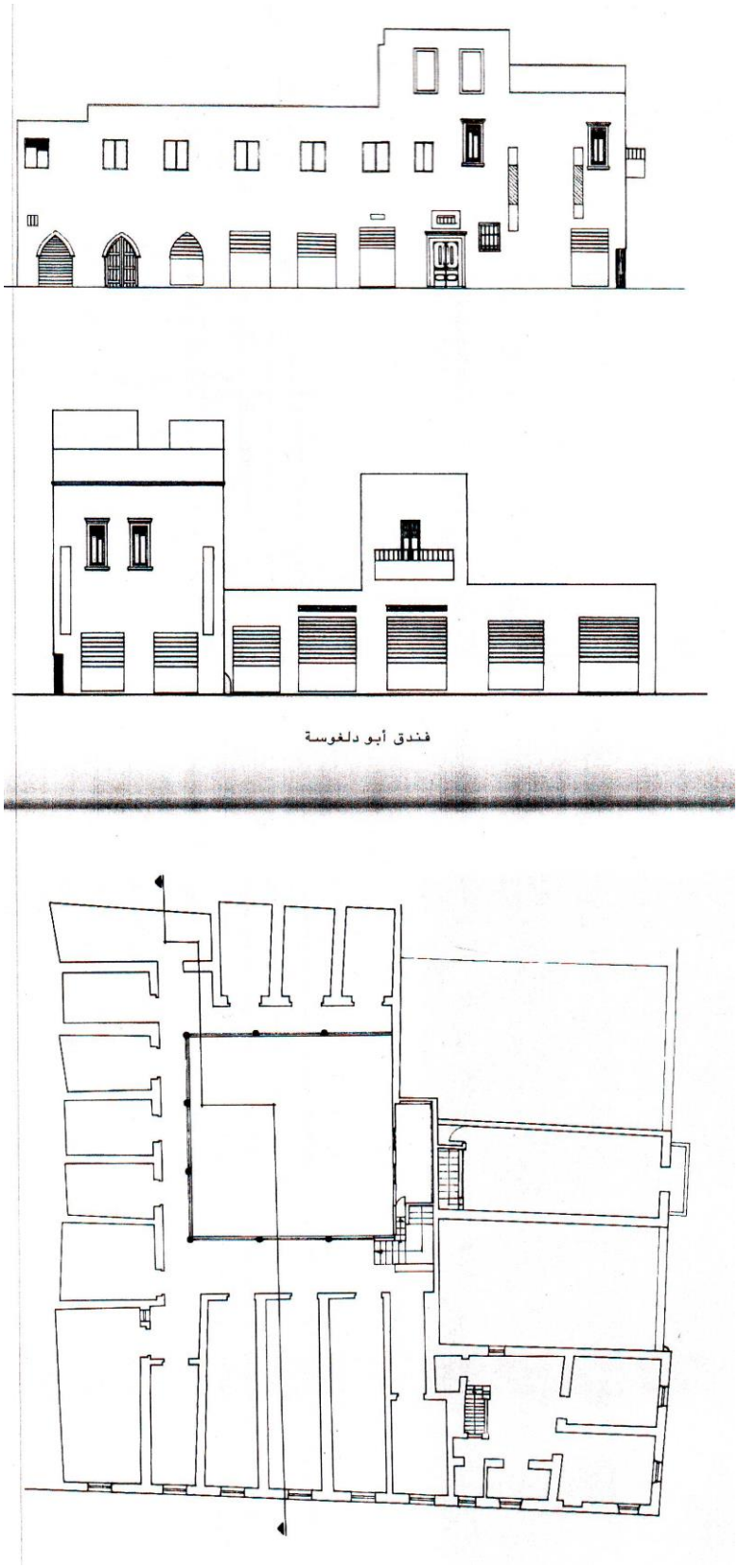

المصدر : الفنادق بالمدينة القديمة إطرابلس ص ص 68-69